العدد 2442 - السنة التاسعة
الجمعة 8 رجب 1437 - الموافق 15 إبريل 2016
Friday 15 April 2016 - No.2442 - 9th Year

إعداد : ياسر السيد

«ولا يفلح الساحر حيث أتى»

طالما توهّم بعض الناس عند مطالعته للأضواء الساطعة التي تسلّط من قبل الفضائيات على السحر والسحرة أنهم قد بلغوا الغاية من النجاح، وأنهم قد تمكّنوا من تحقيق مجدهم الشخصي ووصلوا إلى شاطىء الراحة وجزيرة السعادة، وقد بلغ هذا التفكير ذروته في السنوات الأخيرة حيث كثرت أبواق السحر التي تلمّعها وتحرص على إبرازها آلة الإعلام الضخمة بمختلف مكوّناتها وأدواتها.

ولا شك أن مثل هذا التصوّر المغلوط والنظرة القاصرة لها حضورٌ عند فئام من المسلمين، وهو ما يستدعيّ من المختصّين تصحيح مسار القضية وإعادة الأمور إلى نصابها، لعلاج هذا التهويل والافتتان الحاصل بالسحر والسحرة، وذلك من خلال الحديث عن القاعدة العقديّة التي لا يتطرّقها شك، أو يخالجها ريب، نستقيها من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديهِ ولا من خلفه: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (طه: 69).

لا يفلح الساحر

إشارةٌ عظيمةٌ، ولفتةٌ كريمة تؤكّد الخسران المطلق للساحر، جاءت في ثنايا قصّة موسى عليه السلام في لحظة المواجهة الفاصلة بينه وبين سحرة فرعون، على مرأى من الناس ومسمع منهم.

كان ذلك في يوم الزينة ووقت الضحى، حيث اجتمع سحرة فرعون وتقاطروا من أطراف البلاد يبغون الظفر على نبي الله، صارخين بملىء حناجرهم: ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ (الشعراء:44)، ثم ألقوا حبالهم وعصيهم، وقرؤوا تراتيلهم وتعاويذهم، لتنقلب العصيّ إلى أفاعٍ مخيفة؛ وثعابين مزعجة، واسترهبوا الناس وجاءوا بسحر عظيم، عند ذلك جاءت الطمأنة الإلهيّة أن كيدهم في ضلال، وأمرهم إلى زوال، فلا الفلاح حليفهم، ولا النجاح يصحبهم: ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (طه:69)، فوقع الحق وانتصر، وانهزم الباطل وانحسر.

وقد تكرّر تقرير هذه القضيّة في سياق آخر، جاء في حوار مباشرٍ بين فرعون وملئه من جهة، وموسى وهارون -عليهما السلام- من جهة أخرى، وذلك حينما ردّ القوم المعجزات ونفوا دلالتها على النبوّة، واعتبروها من قبيل السحر، قال لهم موسى عليه السلام موبّخا ومعاتبا: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾ (يونس:77)، فعدم الفلاح أمرٌ مقرّر معلوم، والشواهد عليه من الواقع كثيرةٌ لا تُحصى.

مفهوم الفلاح المنفي

قبل الاستطراد في تناول هذه القضيّة يحق لنا أن نتساءل: ما هو المفهوم من كلمة الفلاح؟ وما المقصود من نفيه؟ هنا نجد أن العلماء يركّزون على الأسلوب البلاغي الذي جاء به التعبير القرآني: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (طه: 69).

يقولون: النكرة في سياق النفي تفيد العموم، والمقصود بذلك هو أن لفظ (ساحر) جاء مسبوقا بالألف واللام، وبالتالي أصبح اسما يشمل كل ساحر -اسم جنس كما يُعبّر اللغويّون-، ثم إن الفعل هنا جاء في سياق النفي، وذلك يكسبه صفة العموم، بمعنى أن الساحر لا يمكن أن يتّصف بالفلاح، مهما فعل.

وهذا العموم في النفي، يشمل:

-نفي الفلاح في الدنيا: والفلاح في اللغة: البقاء في النعيم والخير، والفوز بما يُفرح به ويكون فيه صلاح الحال، وبعبارة أخرى، هو الذي ينال المطلوب وينجو من المرهوب، فالساحر لا يحصل له شيءٌ من ذلك.

وبشيء من التفصيل يُقال: الساحر في الأعم الأغلب إنما تنصبّ أعماله على تقرير الباطل ونشر الشرّ، والإضرار بالخلق، وهذا كله مصادمٌ لمقتضيات الفلاح، والساحر من أبعد الناس عن معرفة الله والتعلّق به، ويضاف إلى ذلك، أن الساحر وإن اكتسب مالا فلا بركة فيه، بل هو محروم من البركة التي هي أهم من المال نفسه، والسحرة هم أكثر الناس فقراً إلى الناس، ولذلك يحصرون على تزيين أفعالهم والاعتيهم أملا في كسب القليل من المال، فأيّ فلاحٍ في ذلك كله؟

ويُضمّن إلى معنى الفلاح الدنيوي المنفي، الحكم الشرعي في حقّ الساحر، فإن الواجب قتله عند كثير من العلماء، لما له من إضرارٍ بالخلق وتعامل مع الشياطين، وقد روى أبوّ داود وغيرُه عن أبي الشعثاء قولُه: «كنت كاتبا لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كل ساحر، فقتلنا في يوم ثلاثة سواحر».

-نفي الفلاح الأخروي: وذلك لأن الساحر محكومٌ عليه بالكفر إذا كان السحر مما يعظّم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر، وقد قال تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ (البقرة:102). قال الحافظ في «الفتح»: « فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله في الآية على لسان الملكين: ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفرا وهذا كله واضح ».

وارتباط الفلاح المنفي بالكفر ظاهرٌ في كتاب الله، وتجد ذلك جليا في قوله سبحانه: ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ (المؤمنون:117).

ويكون السحرُ من كبائر الذنوب إذا لم يكن فيه شيء من الشرك، بدلالة حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن ؟ قال: الشرك بالله، والسحر) متفق عليه.

وكل من ارتكب كبيرةً فما فوقها، فقد جانب حال المؤمنين الذين وُصفوا بالفلاح المطلق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (البقرة:5)، وقال سبحانه: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (الأعراف: 157).

نفي الفلاح ليس خاصاً بالساحر

هذا النفي للفلاح لا يقتصر على الساحر فحسب، ولكن يتّسعداه ليشمل من يأتي أولئك المسحرة والكهّان، فعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: «من أتى عرّافا، أو ساحرا، أو كاهنا فساله، فصدّق بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». رواه أبو يعلى والبزار ورجاله ثقات كما قال الهيثمي، والحديث وإن كان موقوفا إلا أنه لا يُقال بمجرّد الرأي.

وفي الحديث: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدّق بالسحر). رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والمقصود بتصديق السحر: التصديق بما يخبره به المسحرة من علم الغيب.

ويبقى أن نقول: إن نفي الفلاح عن المسحرة، هو إثبات لعلوّ المؤمنين وسعادتهم، كما وصفهم ربّهم بقوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ (محمد: 35)، وذلك لارتباطهم الوثيق به سبحانه، ويقينهم بانه الضارّ النافع وحده، فلا يسألون أحدا غيرَه، ولا يستعينون بسواه.

إنما الأعمال بالنيات

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما .

الشرح

لقد نال هذا الحديث النصيب الأوفر من اهتمام علماء الحديث ؛ وذلك لاشتماله على قواعد عظيمة من قواعد الدين ، حتى إن بعض العلماء جعل مدار الدين على حديثين : هذا الحديث ، بالإضافة إلى حديث عائشة رضي الله عنها : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) ؛ ووجه ذلك : أن الحديث السابق ميزان للأعمال الظاهرة ، وحديث الباب ميزان للأعمال الباطنة .

والنيّة في اللغة : هي القصد والإرادة ، فيتبيّن من ذلك أن النيّة من أعمال القلوب ، فلا يُشرع النطق بها ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتلفظ بالنية في العبادة ، أما قول الحاج : « لبيك اللهم حجًا » فليس نطقا بالنية ، لكنه إشعارٌ بالدخول في النسك ، بمعنى أن التلبية في الحج بمنزلة التكبير في الصلاة ، ومما يدل على ذلك أنه لو حج ولم يتلفظ بذلك صح حجه عند جمهور أهل العلم .

وللنية فائدتان : أولاً : تمييز العبادات عن بعضها ، وذلك كتمييز الصدقة عن قضاء الدين ، وصيام النافلة عن صيام الفريضة ، ثانياً : تمييز العبادات عن العادات ، فمثلا : قد يغتسل الرجل ويقصد به غسل الجنابة ، فيكون هذا الغسل عبادةً يُثاب عليها العبد ، أما إذا اغتسل وأراد به التبرد من الحرّ ، فهنا يكون الغسل عادة ، فلا يُثاب عليه ، ولذلك استنبط العلماء من هذا الحديث قاعدة مهمة وهي قولهم : « الأمور بمقاصدها » ، وهذه القاعدة تدخل في جميع أبواب الفقه .

وفي صدر هذا الحديث ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (إنما الأعمال بالنيات) ، أي : أنه ما من عمل إلا وله نية ، فالإنسان المكلف لا يمكنه أن يعمل عملاً باختياره ، ويكون هذا العمل من غير نيّة ، ومن خلال ما سبق يمكننا أن نرد على أولئك الذين ابتلاهم الله بالوسواس فيكررون العمل عدة مرات ويوهمهم الشيطان أنهم لم ينووا شيئا ، فنطمئنهم أنه لا يمكن أن يقع منهم عمل باختيارهم من غير نيّة ، ما داموا مكلفين غير مجبرين على فعلهم .

ويستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم : (وإنما لكل امرىء ما نوى) وجوب الإخلاص لله تعالى في جميع الأعمال : لأنه أخبر أنه لا يخلّص للعبد من عمله إلا ما نوى ، فإن نوى في عمله اللهَ والدار الآخرة ، كتب الله له ثواب عمله ، وأجزل له العطاء ، وإن أراد به السمعة والرياء ، فقد حبط عمله ، وكتب عليه وزره ، كما يقول الله عزوجل في محكم كتابه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (الكهف : 110) .

وبذلك يتبين أنه يجب على الإنسان العاقل أن يجعل همّه الآخرةَ في الأمور كلها ، ويتعهّد قلبه ويحذر من الرياء أو الشرك الأصغر ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم مشيرا إلى ذلك : (من كانت الدنيا همّه ، فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة) رواه ابن ماجة.

ومن عظيم أمر النيّة أنه قد يبلغ العبد منازل الأبرار ، ويكتب له ثواب أعمال عظيمة لم يعملها، وذلك بالنيّة ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما رجع من غزوة تبوك : (إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا ، إلا كانوا معكم ، قالوا يا رسول الله : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر) رواه البخاري .

ولما كان قبول الأعمال مرتبطاً بقضية الإخلاص ، ساق النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً ليوضح الصورة أكثر ، فقال : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، وأصل الهجرة : الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من دار المعصية إلى دار الصلاح ، وهذه الهجرة لا تنقطع أبدا ما بقيت التوبة ؛ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي في السنن ، وقد يستشكل البعض ما ورد في الحديث السابق ؛ حيث يظنّ أن هناك تعارضا بين هذا الحديث وقوله صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح) كما في « الصحيحين » ، والجواب عن ذلك : أن المراد بالهجرة في الحديث الأخير معنىً مخصوص ؛ وهو : انقطاع الهجرة من مكة ، فقد أصبحت دار الإسلام ، فلا هجرة منها .

على أن إطلاق الهجرة في الشرع يراد به أحد أمور ثلاثة : هجر المكان ، وهجر العمل ، وهجر العامل ، أما هجر المكان : فهو الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وأما هجر العمل : فمعناه أن يهجر المسلم كل أنواع الشرك والمعاصي ، كما جاء في الحديث النبوي : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) متفق عليه ، والمقصود من هجر العامل : هجران أهل البدع والمعاصي ، وذلك مشروط بأن تتحقق المصلحة من هجرهم ، فيتركوا ما كانوا عليه من الذنوب والمعاصي ، أما إن كان الهجر لا ينفع ، ولم تتحقق المصلحة المرجوّة منه ، فإنه يكون محرماً .

ومما يُلاحظ في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خصّ المرأة بالذكر من بين متاع الدنيا في قوله : (أو امرأة ينكحها) ، بالرغم من أنها داخلة في عموم الدنيا ؛ وذلك زيادة في التحذير من فتنة النساء ؛ لأن الافتتان بهنّ أشد ، مصداقا للحديث النبوي : (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه ، وفي قوله : (فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، لم يذكر ما أراده من الدنيا أو المرأة ، وعبّر عنه بالضمير في قوله : (ما هاجر إليه) ، وذلك تحقيرا لما أراده من أمر الدنيا واستهانة به واستصغارا لشأنه ، حيث لم يذكره بلفظه .

ومما يستفاد من هذا الحديث – علاوة على ماتقدم – : أن على الداعية الناجح أن يضرب الأمثال لبيان وإيضاح الحق الذي يحمله للناس ؛ وذلك لأن النفس البشرية جبلت على محبة سماع القصص والأمثال ، فالفكرة مع المثل تطرق السمع ، وتدخل إلى القلب من غير استئذان ، وبالتالي تترك أثرها فيه ، لذلك كثر استعمالها في الكتاب والسنة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، والحمد لله رب العالمين.

دعاء

لا إله إلّا الله الملك الحقّ المبين، لا إله إلّا الله العدل اليقين، لا إله إلّا الله ربّنا وربّ آبائنا الأوّلين، سبحانك إني كنت من الظالمين، لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير، وإليه المصير، وهو على كلّ شيء قدير، لا إله إلّا الله إقراراً بربوبيّته، سبحان الله خضوعا لعظمته، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، لا إله إلّا الله الملك المبين، لا إله إلّا الله العدل اليقين، لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير.